

دلالات الألوان في الأمثال الشعبية الجزائرية

أ. هدى أيت شقديد

جامعة الطارف

الملخص:

تحتل الأمثال الشعبية أهمية بالغة وواضحة في حياة الإنسان فهو يعتمد عليها في كلامه في كل زمان ومكان، فالمثل آلية حجاجية بالغة الإقناع والتأثير.

ويعدّ اللون أحد أهم الأساليب التي أسندت للأمثال منذ القدم لئلا يسهل من قدرته على زيادة بلاغته وتأثيره خاصة وأن أغلب الألوان المستخدمة في الأمثال مستمدة من بيئة الإنسان ومحيطه، لذلك ارتأينا في دراستنا البحث في موضوع دلالات الألوان في الأمثال الشعبية الجزائرية، ومدى قدرتها على إنتاج كمّ لامتناه من الإيحاءات والدلالات والرموز.

Abstract:

Proverbs (or popular sayings) takes a very clear and extreme importance in man's life, because he depends on it in his talking everywhere and every time.

It's considered to be an argument's mechanism that has a big effect in conviction.

So we decided in our study to look after color's indications and meanings in Algerian popular sayings and its ability to produce an infinite quantity of inspirations, indications and symbols.

And color is one of the most important methods that had been assigned to the popular sayings since long time ago, for its ability to enrich its eloquence and impact especially that most of the colors used in proverbs are taken from human's environment.

تمهيد:

الإنسان اجتماعي بطبعه وهو عضو في المجتمع يؤثر فيه ويتأثر به. لذلك دارت حول هذا العنصر الاجتماعي الفاعل، الأبحاث والدراسات وكان في كثير من النصوص الأدبية، المحور الأساسي الذي تدور حوله الأحداث ومنها النصوص الأدبية التي تعبّر وتنقل لنا ملامح الثقافة الشعبية العربية، ولما كان موضوع دراستنا يتعلق بالأمثال الشعبية، أحد هذه النصوص، فقد وجب علينا أن نستعرض مفهوم كل من الثقافة الشعبية، الأدب الشعبي، المثل الشعبي كأحد أهم أشكال التعبير في الأدب الشعبي، طبعاً دون أن ننسى مفهوم اللون كمحور أساسي في هذه الدراسة.

1. الثقافة الشعبية:

تمثل الثقافة الشعبية "بطاقة التعريف الأصلية للشعوب والأمم، ذلك أن ثقافة شعب من الشعوب تشمل جميع أشكال إبداعاته وسلوكاته وأفكاره ومعتقداته وتصوّراته الشعبية مما يظهر في عاداته وتقاليد ولغته وتعبيره الشفوي، وممارسته البدوية"⁽¹⁾.

فهي تعبّر عن حياته بصفة عامة، كما أنّها تمثّل على حدّ قول فوزي العنتيل:

"البناء الكامل من الأفكار والمعتقدات والأخلاق والقوانين واللغة، كما تشمل أيضاً جميع الأدوات والأسلحة والآلات وغيرها من المخترعات التي يستخدمها الناس لكي يتلاءموا مع حياتهم على هذا الكوكب"⁽²⁾.

فالثقافة تمثّل الجانب المادّي والروحي للإنسان وتعبّر عنه وعن هويته على مرّ الأزمان والعصور وقد نتجت عن هذه الثقافة الشعبية بما تحمله من تجسيد للجوانب المادية والروحية للشعوب فنون أدبية تسعى إلى تمثيلها، وأهمّها الأدب الشعبي بشقيه المادّي وغير المادّي، وهذا التمثيل في الحقيقة، يعدّ مساهمة واضحة في إبراز الهوية العربية بكل مقوماتها متّخذاً أشكالاً عديدة للتعبير عن ذلك.

2. الأدب الشعبي:

يقول محمد المرزوقي في تعريفه الأدب الشعبي "يتمثل الأدب الشعبي عندنا في الأغاني التي تردّد في الأفراح والأقراح، وفي المثل السائر، وفي اللّغز وفي هذه النّداءات المسجوعة والمنظومة على السّلع وغيرها، وفي النّكتة والنّادرة، وفي الأساطير التي تقصّها العجائز وفي القصّة الطويلة كألف ليلة وليلة وفي السّير كسيرة بني هلال وفي التمثيليات التّقليدية... الخ"⁽³⁾.

فهو كل الفنون الشعبية التي تنقل تفاصيل حياة الإنسان المادية والروحية وهو ينبعث كما يقول أحمد رشدي صالح "من أعمال أجيال عديدة من البشرية"⁽⁴⁾.

فهو تعبير جماعي واسع النّطاق وممتد عبر الزّمن وبذلك فهو يختلف عن الأدب الذاتي "في شكله وتعبيره، فالإنسان الفرد الذي يحرص على أن يدوّن اسمه في تاريخ الأدب يتحتّم أن يكون أدبه مجليا لذاتيته ولروح عصره، فإذا فشل في تحقيق ذلك فإن هذا الأدب لا يعيش مع الأجيال وإذا هو قدّر له أن يعيش فلفترة قصيرة، أمّا الأدب الشعبي فهو ينبع من الوعي واللاشعور الجمعي"⁽⁵⁾.

فالأوّل حدوده واضحة المعالم، فهو خاص بفئة معينة ويعبّر عن فترة زمنية محددة، لذلك فحياته وموته محكومان بالزّمن، أمّا الثّاني فهو جماعي ممتد عبر الزّمن محكوم عليه بالحياة.

ولكي يضمن الأدب الشعبي استمراريته نجده يتوسّل في تعابيره بأشكال تعبيرية عديدة كالحكاية والنكتة والأسطورة والألغاز والأمثال والحكم... وغيرها.

3. مفهوم المثل:

المثل هو ذلك الكلام الموجز البليغ، يحمل فكرة أو معتقدا أو يمثل عادات وتقاليد مجتمع معين، فما هو مفهوم المثل لغة واصطلاحاً؟

• لغة:

جاء في لسان العرب في تعريف المثل ما يلي "مثل كلمة تسوية، يقال: هذا مثله ومثله، كما يقال شبهه وشبهه (...). و المثل: الشبه (...). قال ابن جني: وقوله عز وجل: فوب السّماء والأرض إنه لحق مثل ما انكم تنطقون." ⁽⁶⁾.

فالمثل ينطبق على الحادثة التي قيل فيها، فبينهما مشابهة لذلك نجد الأمثال كلها عبّر.

• اصطلاحاً:

كثرت التعريفات وتعددت المفاهيم التي قيلت في المثل وعنه يقول محمد بن أبي شنب ^(1*) "إنه بالاستعانة بمثل ما يتمّ إسكات ثرثار، وإنعاش محادثة، والتوليف بين القلوب واجتناب الخطب الطويلة، وتوضيح الضّلال وتنفيذ حجّة، وإصلاح خطأ والاستجابة لدعوة"⁽⁷⁾.

فهو يقوم بعدّة أدوار في المجتمع، فنجدّه أحيانا يصوّر واقعا، أو عادة أو تقليدا معينا، وأحيانا أخرى تجده يقوم بدور الواعظ والموجه في المجتمع وهكذا تتعدّد وتنوّع الأدوار التي يؤديها المثل، وحسب عبد الله بن المقفع فإذا "جعل الكلام مثلاً كان أَوْضَعُ للمنطق وأَنْقَ للسمع وأَوْسَعُ لشعوب الحديث (...). ويضيف لذلك عبد ربّه خاصيّة الشّيوخ والتداول، فيقول أن الأمثال هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني والتي تختبرها العرب وقدّمت العجم ونطق بها في كلّ زمان على كلّ لسان، فهي أبقي من الشّعور وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها"⁽⁸⁾.

وهذان التعريفان يسيّران إلى أهمية أداء المثل في المجتمع بإيجازه وبلاغته فهو مرآة عاكسة لحالة الشعوب بعاداتها وتقاليدها وعقائدها وسلوكات أفرادها.

أمّا أبو الحسن الماوردي فقد لفت الأنظار إلى البعد النفسي في الأمثال فقال " لها من الكلام موقع الأسماع والتأثير في القلوب، فلا يكاد المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها وامقة والقلوب بها وثقة والعقول لها موافقة"(9).

وفي هذا القول إشارة على أن الأمثال تعبّر عن الحاجات النفسية للشعوب، هذا وللمثل الشعبي سلطة رمزية يمارسها على جمهوره أثناء أداء المثل وتداوله، كما أن سلطته الحقيقية ليست كلّها في إيجاز وبلاغته وجماله، وإنّما في القدرة على انتشار واستمرار تداوله بين الناس، فما أكثرها تلك الأمثال التي قيلت في زمن ما ولكنها اندثرت ونسيت لأنها لم تجد المحضن الاجتماعي الذي يتكفل بإشاعتها بين الناس وعبر الزمن وحين يكشف المثل "عن الأوضاع الحضارية والقيود الاجتماعية والقيم التي يؤمن بها الأفراد المستعملون للأمثال دون أخرى في وسط محدود وفي تاريخ معيّن يدلّ دلالة واضحة على نسبة هذه الطاقة الرمزية وارتباطها بسياق تاريخي محدّد وبهيمنة إيديولوجية يمكن تعيينها والكشف عنها"(10).

إنّ السبب الذي يجعل مثلاً ما ذو سلطة رمزية وآخر مجرد حديث عابر هو مدى تداول ذلك المثل في الأوساط الاجتماعية ومدى شيوعه واستعماله من قبل المتكلمين.

و الإنسان حينما حاول أن ينقل تجاربه و خبراته و بالذات واقع حياته عن طريق الكلمة، اتخذ في سبيل ذلك أشكالا تعبيرية تيسر له طريقه في ذلك فكان المثل الجانب الأقوى الذي ركن إليه هذا الإنسان" فهو أقدر أنواع الأدب الشعبي في التعبير عن العلاقات الاجتماعية المعقدة (...). و صياغة السلوك الإنساني في جمل قصيرة معبرة عن الظواهر الاجتماعية (...). لهذا قيل إذا أردت دراسة ثقافة شعب من الشعوب فعليك بدراسة أمثالها"(11).

فالمثل آلية من آليات التواصل بين الأجيال و ناقل أمين لعاداتها و تقاليده و أحوالها الاجتماعية عموماً.

و ما يؤكد أهمية المثل ودوره في الحياة الاجتماعية للأفراد و عبر الأجيال، ذكره في كل من القرآن الكريم و السنة النبوية العطرة فقد وردت " لفظة المثل في القرآن الكريم بكثرة منها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ۖ ﴾ سورة الحج الآية 73.

فقد نطق كتاب الله تعالى و هو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها و لم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وهو أفصح العرب و هذه الكثرة دلالة على ماله من أهمية كبيرة عند الجاهليين... يرد عندهم على كلّ لسان و عند من أتى بعدهم إلى يومنا هذا"(12).

و القرآن الكريم كلّه عبر و من صفته الإيجاز البلاغة و كذلك السنة النبوية الشريفة لذلك نجد الإنسان في حياته و في معاملاته يستخدم هذه الأمثال لأغراض عديدة.

و بالنسبة للأمثال الشعبية نجد أنّ المنتج الأوّل لهذه الأمثال ضمّنها العديد من الآليات البلاغية و التواصلية، و من هذه الآليات ما ارتبط مباشرة بالطبيعة مثل الألوان و هو موضوع دراستنا هذه فاحتواء الأمثال على مفردات الألوان، ودلالات هذه الألوان في الأمثال الشعبية هو مصور حديثنا في هذه الدراسة" فموضوع الألوان بكلّ جوانبه الحسية و المعنوية من تنوع في الدلالة و تعدد في الرموز يدخل في أمزجة شعوب المعمورة جميعها، على تلون ثقافتها و اختلاف معتقداتها"(13).

فما هو مفهوم اللون؟.

و ما دلالاته في الأمثال الشعبية؟.

4. مفهوم اللون:

• لغة:

ورد المفهوم اللغوي للون عند ابن منظور بقوله " اللون :هيئة كالسواد و الحمرة، و لونه فتلون، و لون كل شيء، ما فصل بينه و بين غيره، و الجمع ألوان و قد تلون و لون و لونه. و الألوان: الضروب. و اللون: النوع. و فلان متلون إذا كان يثبت على خلق واحد، و اللون: الدقل، و هو ضرب من النخل"(14).

فاللون يمكن أن يتخذ كأداة للفرقة و قد يطلق على الأشخاص حين نجد تناقضا في تصرفاتهم و أفعالهم.

وفي مقاييس اللغة لابن فارس، جاء في تعريف اللون قوله " اللام و الواو و التون كلمة واحدة، و هي لون الشيء كالحمرة و السواد، أو غيرها و يبدأ اللفظ باللام التي تدل على دخول الشيء في الشيء آخر، مما يدل على تركيب اللون من عناصر عديدة"(15).

فالألوان متعلقة بالأشياء، كما أنّ هناك من الألوان ما هو أساسي، و إذا تداخلت أصبح هناك تركيب في الألوان فتنتج ألوان مركبة ثانوية .

• اصطلاحاً:

أمّا في ما يخص الجانب الاصطلاحي للون فقد فصلت " الموسوعات الحديثة في أصل مصطلح لون في ظل تطور العلم، خاصة في الدراسات الضوئية التي تعتمد على طول الموجة، و يتوقف اللون الظاهر لجسم ما على طول موجة الضوء الذي يعكسه"(16).

و بهذا يرتبط اللون ارتباطاً مباشراً لموجات الضوئية ويختلف حسب حدتها وضعفها.

أمّا علماء النفس فيعتقدون أنّ " للون القدرة على إحداث تأثيرات نفسية على الإنسان، إذ إنّ لديه القدرة على الكشف عن شخصية الأفراد، ذلك لأنّ كل لون من الألوان مرتبط بمفاهيم نفسية معينة و يملك دلالات خاصة و عن طريق اختبارات الألوان يمكن تحليل الشخصية تحليلاً يتضمن تقويم القدرات و بيان الحالات العاطفية و الفكرية"(17).

إذن فاللون يعكس نفسية صاحبه، فكثيراً ما يقال لحب اللون الأسود أنه إنسان متشائم، بينما يبدو لنا محب اللون الأبيض متفائلاً و متساحلاً و بهذا يرتبط اللون الأسود بالنفسية السلبية و يرتبط الأبيض بالنفسية الإيجابية.

ولهذا غالباً ما ارتبطت الألوان في الأمثال الشعبية بنفسيات الشعوب وأحوال ورغباته حيث أضحت الألوان تنمّص دلالات رمزية مقصودة بعد أن دخلت المعتقدات في تركيبها و ضرورة اختيارها فمنها ما ارتبط بالحياة، ومنها ما ارتبط بالموت و منها ما اقترن بالجدب والشح، واتخذ الإنسان من الألوان رموزاً للفرح وأخرى للحزن، وشارات للسلام و أخرى للحرب، و علامات للأمراض وأخرى للباس، ودخلت الألوان في قبور الملوك و العظماء كما دخلت في قصورهم و صارت علامات لأكفانهم، كما كانت ميزة لألبستهم و تطورت رموز الألوان لتتخذ شعارات دينية و قومية لا تزال قائمة إلى يومنا "(18).

ومن هنا اتضح الدور الكبير للألوان في التعبير عن حالات الأفراد و الشعوب النفسية، و أمزجتهم، و بخاصة الأوساط الشعبية منها.

و من هذا الباب سنلج عالم الألوان و دلالاتها في الأمثال الشعبية الجزائرية لذلك فقد رتبنا الأمثال الشعبية و التي تمثل النماذج المختارة للدراسة - تبعاً لتصنيف الألوان فجاءت الأمثال التي ورد فيها اللون الأسود في المقدمة تليها الأمثال التي ورد فيها اللون الأبيض ثم الأحمر فالأخضر و أخيراً اللون الأصفر، و لم نعرض للأمثال التي ذكر فيها اللون الأزرق و كذا الألوان الثانوية.

حضور الألوان في المثل الشعبي

اتخذنا في هذه الدراسة التحليلية الدلالية نماذج من الأمثال الشعبية الجزائرية، مأخوذة من كتابين، الأول بعنوان: تداول الألوان في الأدب الشعبي الجزائري لمحمد العربي حرز الله، والثاني بعنوان: حكم و أمثال شعبية جزائرية لجعكور مسعود وفي هذين المرجعين لم نعثر على أمثال حاوية للون الأزرق.

لقد دفعت بنا عدة أسباب للقيام بهذه الدراسة و أهمها، الدور البارز الذي تقوم به الألوان في الأدب الشعبي الجزائري عامة والأمثال الشعبية خاصة، حيث " تتجلى الألوان بكثرة في الأمثال والحكم الشعبية المتداول بقوة في الأوساط الشعبية، ولا تكاد تخرج في دلائلها ورموزها عن التراث العربي القاسم المتوارث عن الأجيال، لا من حيث الصيغ التي تقترب من الفصحى في تراكيبها و مبانيها، و لا من حيث مدلولاتها و معانيها التي تعبر بصدق عن الحس الشعبي.

وتدخل مدلولات التفاؤل والتشاؤم والفرح والحزن والصحة والمرض والاستبشار والطيرة في معاني الأمثال المتداولة"⁽¹⁹⁾ ومن بين ما نذكر من هذه الأمثال و التي رتبناها كما سبق وأن ذكرنا حسب تصنيفات الألوان - نذكر ما يلي:

أ. الأمثال التي ورد فيها ذكر اللون الأسود:

يرتبط اللون الأسود في الأمثال الشعبية بالكثير من المعاني و الرموز و المتواضع عليها في الكثير من الأحيان و إن كان هناك - أحيانا - اختلافا في الدلالة إذا ما انتقلنا من أمة إلى أخرى، فاللون الأسود - "بتمثيلاته الشائعة الحضور و القيمة و التلقي والتداول والاستخدام - فإنه اللون الأكثر هيمنة على البشر (...) والأوسع استجابة لخوفهم وأحزانهم ومعاناتهم والتفاهم حول ذواتهم وتشبثهم بالمكان"⁽²⁰⁾ وهم يعبرون عن حالاتهم هذه عبر أمثالهم الشعبية فنجدهم يقولون " ليلة سوداء عن ليلة شقاء وعذاب بالنسبة لشخص ما"⁽²¹⁾.

فالسواد هنا يدل على المعاناة والتعب " فاللون الأسود يشير الشؤم و الألم غالبا فهو كغيره من الألوان له معنى نفسي يتكون نتيجة للتأثير الفيزيولوجي للون في الإنسان وهذا التأثير يترك خيرة شخصية تمتزج بشعور داخلي أو تخمين عام فيتكون المعنى النفسي للون"⁽²²⁾.

فتنتج المشاعر السلبية بسبب الظلمة و العتمة التي ينتجها اللون الأسود وتسود حالات الغموض و الموت و الدمار و الشر والمهانة..... وغيرها.

وفي المثل القائل " اللي سيدو مزود يروح يسود: و معناه لا تأخذ العلم من الكتب، والسواد هنا يحيل لإمكانية سوء فهم متون بعض الكتب و هو ما يحيل دون تلقي الطالب العلم الصحيح (...) و هذا المثل عموما يشجع على أخذ العلم من الأستاذ (...) و إذا قرأت كتابا فاحرص كل الحرص على أن تستقصي و تملك معناه"⁽²³⁾. فاللون الأسود يحيل إلى الغموض و بهذا يحافظ هذا اللون على مناخه العلامي السليبي.

" الدين مسود الخدين: فالدين هم بالليل و ذل بالنهار"⁽²⁴⁾.

فالسواد دلالة الدل و المهانة و الإنسان المدين تجده يتخفى من مكان إلى آخر بسبب ثقل دينه و عدم القدرة على سده فالسواد دلالة على غلبة الدين الذي يتبعه قهر الرجال، و ما نلاحظ على هذا المثل أنه يتناص مع الدعاء في السنة النبوية لشريفة لذلك نجده لافت للانتباه ببلاغته و إيجازه و استطاع أن يحدث تواصلًا مع عالمه و محيطه لفظيا و بصريا فهو عبارة عن استراتيجية تواصلية فريدة من نوعها.

" العمشاء فابلاذ العميان كحلة العيون: أي أن الجاهل في بلاد الأغبياء سيد القوم"⁽²⁵⁾ و ما نلاحظه على هذا المثل أن له دلالتين الأولى سلبية و الثانية ايجابية فقد أشير للون الأسود في كلمة (العمشاء) بطريقة غير مباشرة فالأعمى يرى العالم كله

سواد و هذا هو المعنى السلبي لهذا اللون، الظلمة و العتمة أما الإشارة الثانية فهي مباشرة في عبارة (كحلة العيون و هي دلالة إيجابية، منها الجمال و الزينة و الدرجة الرفيعة في القوم و تسمى هذه الظاهرة اللغوية بظاهرة التنافر بين الألوان " و هو شكل من أشكال العلاقات الدلالية، حقيقة أن كلمات مختلفة يكون لها المعنى نفسه و أن الكلمات عينها قد يكون لها معان مختلفة (...) لهذا يصحّح فيرث بأنّ المعنى لا ينكشف إلا من خلال تنسيق الوحدة اللغوية أي وصفها في سياقات مختلفة" (26) و هذا ما لاحظناه في المثل السابق، " فكلما دخل اللون سياقاً نصّياً ما إلّا و تحوّلت دلالتة و منها نظرنا له و لتداوله، فالألوان تصنع للعالم قيماً أكثر عمقا و تكثيفا، فهي تعيد صياغته و تحديد وجوده أو انعدامه بالنسبة إلى وعينا به" (27) فلا يمكننا الحديث

عن دلالة الألوان بعيدا عن مسار النص (المثل الشعبي) فهذه الدلالة متغيرة بتغير المسار و السياق.

• الأمثال التي ورد فيها اللون الأبيض:

يحتل اللون الأبيض المرتبة الثانية بعد اللون الأسود و يعتبر من " الألوان الباردة التي تثير الشعور بالهدوء، و اهتم العرب قديما بتميز الأبيض بألفاظ خاصة، تحدّد درجاته و صفاته، فقد رتب الثعالبي درجات الأبيض على النحو التالي: أبيض ثم يقق ثم هَقْ، ثم واضح ثم ناصع ثم هجانّ و خالص" (28) و الملاحظ في الأمثال الشعبية الجزائرية ورود الألفاظ الدالة على اللون الأبيض و بكثرة و منها قولهم:

- "فلان يده بيضاء: كناية عن السخاء و فعل الخير.

- فلان وجهه أبيض: كناية عن العفة و الطهارة" (29).

و عموماً و حسب الذاكرة الشعبية فقد ارتبط اللون الأبيض على مرّ العصور بكل ما هو إيجابي و طاهر و نقي و من الجانب النفسي ارتباط بالراحة النفسية و في القرآن الكريم ورد ارتباط اللون الأبيض بالجزاء الحسن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ سورة آل عمران: الآية 106.

" كما أنّه رمز للطهارة و النور و الغبطة و الفرح و السرور و النصر لذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى نعيم أهل الجنة و فوزهم و مكافأهم بالبياض نتيجة العمل الصالح في الدنيا و هو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سورة آل عمران الآية 107.

(...) وكذلك ورد في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم (حوضي ماؤه أبيض من اللبن...) (30) ويقولون كذلك

- "وقع على بياض: مثل شائع يقال للتعبير عن الثقة العالية.

- ليلة يبيضاء: مثل يقال عن ليلة لم ينم فيها الشخص لسبب من الأسباب" (31)، غير أن اللون الأبيض قد ينزاح عن دلالاته الإيجابية فيرمز إلى معاني معاكسة تماما للمعاني السابقة و ذلك في " بيئات و أمكنة و أحياء و أزمنة و أوقات معينة فهو مثلاً رمز للحزن لدى بعض الأمم و منها أمة الصين" (32).

و قد وردت الكثير من المعاني السلبية للون الأبيض في الأمثال الشعبية و منها:

"كلّ القبور مبيضة منك: مثال للاستهزاء بالرعيدي الجبان" (33).

و يخرج اللون الأبيض في هذا المثل عن دلالاته العامة المتعارف عليها ليرمز إلى النفور و الاستهزاء من تصرّفات الشخص الجبان اتجاه مواقف الحياة و كذا يرمز إلى معاني الاستنكار لهذه المواقف.

و قولهم:

- "عام أبيض: أي سنة جدباء منعدمة العشب.

- سنة بيضاء: و عادة ما تكون سنة جدباء لا يغطي فيها النبات الأرض و صار المصطلح حديثا يطلق على السنة التي يضرب فيها الطلبة عن الدراسة .

- انتخب بالبياض: أي أنه لم يمنح صوته لأية جهة⁽³⁴⁾ .

ويرمز اللون الأبيض في هذه الأمثلة إلى العدم.

و عموماً يمكن القول: أن اللونين الأبيض و الأسود، هما من أكثر الألوان تداولاً في الأمثال الشعبية الجزائرية، فالمعاني التي يرمز لها كلا اللونين سواء أكانت إيجابية أم سلبية، فهي معان استقرت في وجدان الأمة على نحو خاص و استطاع الإنسان الأول و المنتج لهذه الأمثال أن يمارس من خلالها لعبة الألوان بجدارة، رابطاً إياها بأمور عديدة في البيئة و الحياة الاجتماعية، و ظلت هذه المعاني تتناقلها الأجيال إلى يومنا هذا، جيلاً بعد جيل.

• الأمثال التي ورد فيها اللون الأحمر:

حظي اللون الأحمر باهتمام الشعوب على مرّ الأزمان، و أسندت له العديد من المعاني فأضحى متعدّد الدلالات إلى درجة التناقض أحيانا.

و يعد اللون الأحمر " من أوائل الألوان التي عرفها الإنسان في الطبيعة، فهو من الألوان الساخنة المستمدة من وهج الشمس و اشتعال النار و الحرارة الشديدة و هو من أطول الموجات الضوئية و أكثرها تضاربا فهو لون البهجة و الحزن و العنف (...)

و يرمز في الديانات الغربية إلى التضحيات في سبيل المبدأ و الدين⁽³⁵⁾.

و من الأمثلة التي ورد فيها ذكر اللون الأحمر، ما يلي:

" ليلة حمراء: و يكتفى بها لليلة خمر و عريضة⁽³⁶⁾ " كما أنها ترمز لليلة لهو وترف مبالغ فيهما و ما يقع بعد ذلك من ندم و حسرة في القلب و حرقه في الفؤاد.

" - زلاه فالقائلة حمراء: يضرب هذا المثل لمن ينكر حقّ الناس عليه .

- شاف النجوم فالقائلة حمراء: رأى الكواكب ظهرا، أي أظلم عليه يوم حتى أبصر النجوم نهاراً، يضرب عند اشتداد الأمر، و يضرب هذا المثل أيضا لمن تلقى ضربة مؤلمة، ففوحّ لها حتى رأى النجوم في أعزّ الظهيرة⁽³⁷⁾ .

وما نلاحظه على المثالين السابقين، أنّ ثمة ربط بين الزمن واللون الأحمر إذ أن له ارتباطا بالشمس وما يدل عليه هنا هو كلمة القائلة وهو وقت منتصف النهار عندما تبلغ حرارة الشمس ذروتها.

وهو يدلّ على شدّة الغضب والرغبة في الثأر، إذ يرى بعض علماء النفس "أنّ اللون الأحمر يثير روح الهجوم والغرور والثأر، ويخلق نوعاً من التوتر العصبي، كما أنه اللون المثير الذي يستدعي انتباه الجميع(...)" وهو مصدر الإثارة والحديث عن البيئة لذلك تعددت رموزه منها الغضب و القوة والخطر و الثورة، فضلا عن رموز الحب والفرح والسرور ويتخذ رمزا للقتال والشدّة لأنه لون النار و الدم فضلا عن أنّه من الألوان الحارة لكونه يرتبط بالشمس بشكل أو بآخر⁽³⁸⁾.

وقد ينحرف اللون الأحمر عن معناه فيستخدم في سياقات أخرى معاكسة تماما لدلالاته السابقة ففي المثل القائل:

"- في بنونتي^(2*) ولا في صباطي الأحمر⁽³⁹⁾" معنى مخالف تماماً فهو يرمز إلى البخل والشح وإن كان الشخص في نعمة وهناء

عيش، وهذا الانزياح عن المعنى المعتاد والدلالة الشائعة للون الأحمر سببه البيئة والشخص الذي ضرب المثل، بالإضافة إلى الشيوع والتداول لمثل هذه المعاني.

• الأمثال التي ورد اللون الأخضر:

يعدّ اللون الأخضر "من المفردات التي لها أثر في الحياة العربية قبل الإسلام وبعده (...)" فهو من الألوان الباردة المشتقة من مظاهر الطبيعة والأشجار و الماء والسّماء (...). أمّا في الدراسات الحديثة فيتخذ رموز السّلام والطفولة واستمرارية الحياة والنبيل والخصوبة⁽⁴⁰⁾.

وقد حظي اللون الأخضر بأهمية متنوعة وواسعة الاستخدام في الأمثال الشعبية الجزائرية وهي متعدّدة نذكر منها: "فلان كالبعير الأخضر، وتذكر للطيرة، وفي اعتقاد البعض أن البعير الأخضر سيء الطالع، وكانت العرب قديما لا ترغب أن يطلّ عليها بعير من هذا اللون ولا تحبذ تصدّره للقافلة أو المرحول"⁽⁴¹⁾.

ونلاحظ أن صفة التشاؤم تلحق أساسا بالبعير، أي أن الأمر يدخل في مجال التشاؤم من الحيوان، ومن مثل ذلك التشاؤم من رؤية الحمار في الصباح الباكر وكذا من سماع صوته، ولعل هذا المثل يصوّر وجها من وجوه الانحراف اللّوني عن دلالاته الحقيقية أو العامّة، إذ أن اللون الأخضر في المعتاد يعدّ "من أكثر الألوان وضوحا واستقرارا في دلالاته وهو من الألوان المحببة ذات الإيحاءات المبهمة لارتباطه بأشياء مبهمة في الطبيعة أصلا كالنباتات والأحجار الكريمة، ثم جاءت المعتقدات الدينية وغذت هذا الاعتقاد لارتباطه بالخصب والشباب وهما مبعث فرحة الإنسان (...)" وفي الأمثال والتعبيرات الدارجة وصف العيش بأنه أخضر وقدمه خضراء وفي الدّعاء اللهم اجعله عليها سنة خضراء⁽⁴²⁾

وكثيرا ماغيّر عن الوجوه الخيرة بقول الوجوه الخضراء وهو ضرب من الاستحسان والتفاؤل، وقولهم: "رجعت خضراء حشيش: يضرب هذا المثل لمن أعاد النظر في قضية ثمّ الفصل فيها نهائيا"⁽⁴³⁾ فالخضرة هنا تدلّ على الفتوة والجدة وبدايات الأمور أمّا الرموز التي يحيل إليها المثل فهو رمز الشخص الذي لاقرار له وكلّ مرة يتراجع عن قراره ليعيد النظر فيه، ومثل آخر يقول:

"سلف على الأخضر: ويعني أحبى زرعه أي باع أو سلف مالا على زرعته قبل بُدوّ صلاحه"⁽⁴⁴⁾.

ويضرب لمن يتحدّث عن شيء لم يحن أوانه بعد، أو لازل في بدايته وهو يتسرّع النتيجة، "فالألوان تعدل ظاهرة الصّورة المعبّرة عنها، والخيال المركب يستطيع بقدرته الخاصّة التأليف بين الأشياء والألوان والأحاسيس فيبدع الصورة مستفيدا من التعاقب والحركة في الزمان ومن التشكيلة في المكان، وقد تكون الألوان رموزا إلى معان معينة، فقائل المثل قد أبدع عندما أحال تجربته إلى الوجود الفني لذلك يسهم تأثير الفعل اللّوني في إضفاء قدرات جديدة من الإثارة وتوسيع القابليات التشكيلية لهيكل النص"⁽⁴⁵⁾.

فتوظيف اللون الأخضر يختلف من مثل إلى آخر وهذا الاختلاف تحكمه السياقات المتعددة للمثل وكذا الدوافع التي جعلت قائل المثل، يضرب المثل.

"ياكل يابس و أخضر: أي يستأكل الناس بالباطل، هو رم رغول، أي يغتنم كل شيء و يأكله."⁽⁴⁶⁾

ويضرب كذلك للشخص الذي يأكل ولا يفرق في أكله بين الحلال والحرام فالألوان ظاهرة فريدة من نوعها يمكن لمستمعيها أن يضعها في السياق الذي يريده سواء عبر بها عن المعاني الإيجابية أم السلبية وفي إحداها انحراف لوني لا محالة.

الأمثلة التي ورد فيها اللون الأصفر:

وقد أوردنا مثالا واحدا وهو كالتالي:

"أصفر كالزعران: يقال عن المريض الذي تظهر علامات الداء على وجهه."⁽⁴⁷⁾ ويشبه ذلك قولنا للمريض وجهك أصفر كي كعبة القارص وهذا ربط إبداعى بين المثل واللون المتخذ من الطبيعة.

وعموما "يعد اللون الأصفر من الألوان الساخنة ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية فهو لون الشمس واهبة الحرارة والحياة والنشاط والغبطة والسرور، فالسرور كما في قوله تعالى:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ سورة البقرة: الآية 69.

إلا أن بعض الدراسات الحديثة قد أعطت له رموزا من بينها أنه رمز الخداع والغش وعدم الأمانة والمرض والسقام الدائم، فالأصفر يدل على المرض وعلى الزوال، قال تعالى... ثُمَّ يَهَيِّجُ فِتْرَاهُ مُصَفَّرًا وَنُورَهُمْ.... كناية عن الانتهاء والبلوغ والنضوج والزوال. "(48).

ويرمز اللون الأصفر في المثل الذي بين أيدينا إلى دلالة الضعف والمرض، إن لغة الاستعارة والكناية في الأمثال الشعبية "تعكس أقوى طاقات اللغة وإمكاناتها، لأنها تدعم نفسها بظلال الإيحاء، وبما تشيعه من ألوان الحركة و الحيوية (.....) فضلا عن كشف الأبعاد النفسية و الظروف الداخلية و الخارجية المؤثرة في إثراء التجربة (..) التي يحقق بها النص غايته و فنيته وجماليته." (49).

وعموما مما سبق يمكن أن نستنتج من خلال عرض دلالة الألوان في الأمثال الشعبية الجزائرية و ترتيبها حسب التصنيف اللوني أن اللونين الأبيض و الأسود يأتيان على رأس الألوان فهما لوان متعاكسان يرتبطان بالليل و النهار أو بالظلمة و النور وهما متداولان في جميع الحضارات.

يلي ذلك الأحمر وهو من أوضح الألوان لارتباطه بالدم و لكنه متعدد الدلالات إلى درجة التناقض أحيانا، يليه الأخضر و هو لون مستقر ثابت لارتباطه بالنبات و الحصب، ثم الأصفر و هو أقل الألوان شيوعا في الموروث الإنساني و هو يقترب بالشمس.

وكلها ألوان ذات إحياءات دلالية رمزية ذات قيمة جمالية .
خاتمة:

حاولنا في دراستنا لدلالة الألوان في الأمثال الشعبية الجزائرية استنطاق و استبطان اللون و ما يرمز له من دلالات ترتبط بما حوله في سياق المثل، و يمكن أن نحمل أهم النتائج في رحلتنا مع التوظيف الفني للون في الأمثال الشعبية كما يلي:

- للأمثال أهمية بالغة في حياة الإنسان لذلك ضرب الله سبحانه و تعالى لعباده الأمثال، و ضرب رسوله صلى الله عليه وسلم لأئمة الأمثال، و كذلك الحكماء و الأدباء و العامة من الناس.

- بينت الدراسة أنّ الألوان أثرت في الفكر الإنساني منذ العصور القديمة و قد ارتبطت منذ تلك العصور بدلالات مختلفة، انبثقت من طبيعة تلك الألوان و تأثيراتها.

- استخدم الإنسان اللون في الأمثال بغرض التواصل مع العالم لفظيا و مع محيطه بصريا، و رغبة في التعبير عن أفكاره و معتقداته.

- يكشف اللون عن العديد من جوانب حياة الإنسان و خاصة الجانب النفسي من حياته.

- لا يمكن الحديث عن دلالة الألوان بعيدا عن مسار النص فهذه الدلالات متغيرة بتغير المسار و السياق.

- فنيا يعدّ اللون ناقلا فنيا لمشاعر الإنسان أمّا المثل فناقلا صادقا لتجاربه و خبراته.

الهوامش:

1. صالح جديد، مصطلحات الأدب الشعبي، محاضرة سنة أولى ماستر أدب شعبي و دراسات لسانية، 2014/2013.
2. نقلا عن: فوزي العنتيل: بين الفولكلور و الثقافة الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1978م، ص 121.
3. المرجع السابق.
4. أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، دار المعرفة، 1954م، ص 9.
5. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط3 (طبعة منقحة و مزيّدة)، (د ت)، ص 3.
6. ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، دار صادر بيروت، (د ت)، مج 11، ص 610.
- (1*) من الجزائريين القلائل الذين حصلوا على الدكتوراه في الأدب في عهد الاحتلال الفرنسي و يعدّ من بين أبرز أعلام المرحلة الذين تتلمذوا على يد المستشرقين الفرنسيين، و من بين أعلام حركة النهضة العربية الإسلامية في الجزائر و العالم العربي (...). من أهم مؤلفاته كتاب أمثال الجزائر و المغرب، انظر: عبد الحميد بورايو: محمد بن أبي شنب، أمثال الجزائر و المغرب، دار فليش للنشر و التوزيع، الجزائر، (د ط)، 2013م، ص 7- 8.
7. عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري: دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص 26.
8. المرجع نفسه، ص 57.
9. المرجع نفسه، ص 58- 59.
10. التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص 62. 11. م ن، ص 9، 20.
12. إبراهيم صحراوي السرد العربي القديم: الأنواع و الوظائف و البنيات، الدّار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 2008، ص 63.
13. محمد العربي حرز الله: تداول الألوان في الأدب الشعبي: الأدب الجزائري أنموذجا، وزارة الثقافة، (د ط)، الجزائر، 2013 م، ص 5.
14. ابن منظور، م س، مج 13، ص 393.
15. م ن، ص 17.
16. م ن، ص 19.
17. م ن، ص 23.
18. م ن، ص 13 - 14.
19. م ن، ص 163- 164.
20. فانتن عبد الجبار جواد: اللون لعبة سيميائية: بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2009م، ص 44.
21. محمد العربي حرز الله، تداول الألوان في الأدب الشعبي، ص 165.
22. حمد محمد فتحي الجبوري، التوظيف الفني للون في الشعر العربي (السري، الرّفاء أنموذجا)، دار غيداء للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2016م، ص 19.
23. جعكور مسعود، حكم و أمثال شعبية جزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2008م، ص 40.

- 24 م ن ، ص 120.
- 25 م ن ، ص 176.
- 26 أحمد عبد الله محمد حمدان، دلالات الألوان في شعر نزار قباني، أطروحة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية و آدابها، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2008م، ص 63.
- 27 وافية بن مسعود، سيميائية اللون و إستراتيجية الدلالة في رواية أهل البياض لمبارك ربيع، مجلة إنسانيات، الجزائر، عدد 67-جانفي - مارس 2015، ص 23.
- 28 . أحمد عبد الله محمد حمدان، دلالة الألوان في شعر نزار قباني، ص 38.
- 29 . محمد العربي حرز الله، تداول الألوان في الأدب الشعبي، ص 165.
- 30 . حمد محمد فتحي الجبوري، التوظيف الفني للون في الشعر العربي (السري الرفاء نموذجاً)، ص 31.
- 31 محمد العربي حرز الله، ص 165.
- 32 . فائق عبد الجبار جواد، اللون لعبة سيميائية، ص 44.
- 33 م س ، ص ن.
- 34 . محمد العربي حرز الله، ص 166.
- 35 . أحمد عبد الله محمد حمدان، دلالة الألوان في شعر نزار قباني، ص 41.
- 36 . محمد العربي حرز الله، مرجع سابق، ص 165.
- 37 . جعكور مسعود، مرجع سابق، ص 134 - 146.
- 38 . حمد محمد فتحي الجبوري، مرجع سابق، ص 32 - 33.
- (2*) بنونتي: اصبع قدمي، انظر: جعكور مسعود، حكم و أمثال شعبية جزائرية، ص 192.
- 39 م ن ، ص ن.
- 40 م س ، ص 33-34.
- 41 . محمد العربي حرز الله، المرجع السابق، ص 163-164.
- 42 . أحمد عبد الله محمد حمدان، المرجع السابق، ص 45.
- 43 . جعكور مسعود، المرجع السابق، ص 130.
- 44 . م ن ، ص 142.
- 45 . حمد محمد فتحي الجبوري، المرجع السابق، ص 26 - 27.
- 46 م س ، ص 280.
- 47 محمد العربي حرز الله، م س ، ص 164.
- 48 م س ، ص 34-35.
- 49 حمد محمد فتحي الجبوري، م س ، ص 129.